التراث الفكري والفلسفي الإسلامي بين الأصالة والتقليد

د. جمعة إبراهيم حسين
قسم الاجتماع / كلية الآداب / جامعة الأنبار

المقدمـــة:

إن التراث العربي الإسلامي بما يحويه من قيم ومعان إنسانية نبيلة، زاخر بالخبرات والأفكار الاجتماعية التي يشكل عمق ثقافتنا وركيزتها، لكن الملاحظ أن النظرة إلى التراث لم تلق العناية الكافية فأصبح مهملاً ومتروكاً، يرجعه بعض المفكرين إلى عوامل عدة منها اضطراب النظرة إلى الماضي، فهي مزيج مشوش، تختلط فيه تيارات مختلفة ونظرات متباعدة ونزعات متناقضة شكلت اتجاهات ومواقف مختلفة نحو التراث، ومنها أيضا اعتقاد بعضهم بأن التراث الضارب في القدم هو عطاء فكري عديم الجدوى بالنسبة للعلوم الإنسانية، ويكون عاجزاً عن التواصل مع المراحل اللاحقة في حياة المجتمعات، فضلاً عن اعتماد كثير من العلماء على مدارس غربية تختص في العلوم الإنسانية، الأمر الذي يضعف حركة البحث الاجتماعي باتجاه فكر فلسفي وسوسيولوجي معاصر نابع من تفاعل التراث والمعاصرة (١٦:ص٣٣) .

إن ضعف الاهتمام بالتراث أدى كما يرى المفكرون إلى أزمة حادة في ثقافتنا وفكرنا المعاصر تتمثل في تجاهلها لقيم التراث وأهميته في بناء شخصية الأمة وإعطائها الهوية الفكرية والثقافية المميزة وهذا ساهم في انحراف هذه الأمة إلى تيارات فكرية وثقافية أدت إلى تجاهل أصول بعض منابع ثقافتنا مما ساعد على طبع مجتمعنا بالتمزق والاضطراب والتبعية الفكرية وتقمص بعض أساليب الفكر الإنساني العالمي، الأمر الذي أدى إلى تغريب الإنسان العربي المسلم وتشويه فكره وروحه (١٦:ص٣٤) .

من المؤكد اقتران التراث الحضاري الإسلامي بلقب الازدهار العلمي والنشاط العقلي الواسع وان واحداً من أسباب عوامل هذا الازدهار هو التزاوج الفكري الذي شهدته الحضارة الإسلامية مع الحضارات الأخرى. حيث تأثرت وأثرت في الاتجاهات الفكرية والفلسفية العالمية وعليه تأثرت الثقافة الفلسفية الإسلامية بالتراث اليوناني وخاصة أفلاطون وأرسطو وهذا أمر طبيعي لأي فلسفة مهما كان رقيها وإبداعها، لا بد أن يكون لها جذور ومبادئ تاريخية تتفاعل معها، والفلسفة الإسلامية واحدة من هذه الفلسفات التي تفاعلت بتفكير خصب وتحليل عميق مع التراث الإنساني، مكونة لها طابعاً مميزاً ورأياً مستقلاً يجمع بين الفلسفة والشريعة والخروج بفكر توفيقي بين الاثنين بعد أن اتضحت أن غايتها واحدة وهي إصلاح الفرد والمجتمع.

والحال ينطبق أيضاً على الفلسفة اليونانية التي تأثرت بالحضارة الشرقية في بلاد الرافدين والنيل والتي سبقتها زمنياً وكونت هذه الحضارة البطانة الأساسية للثقافة اليونانية التي كان يعدها المؤرخون الغربيون المتعصبون المصدر الوحيد الذي استقى منه العقل الحديث دون أن يقتنعوا بسبب بتلك النظرة المتعصبة أن اليونان لم ينشئوا الحضارة لأن ما ورثوه من أفكار الأمم السابقة أكثر ما ابتدعوه والتي جاءت إلى مدائنهم مع مغانم

الحرب والتجارة (٢٤:ص٦٠) وهذا ما يؤكده جورج سارتون بقوله " إن الحقيقية القائلة بأن مهد المدنية الغربية كانت على ضفاف دجلة والفرات والنيل التي لم تكن تفهم حق الفهم قبل عصرنا الحاضر وأما الآن فأنها أصبحت واضحة اجل الوضوح. بل نحن اليوم نستطيع أن نجزم بلا تردد بأن العلوم الغربية ولدت في تلك البلاد المحظوظة " (٨:ص١٣).

فاثر الحضارة المصرية واضح في الحضارة الإغريقية وأفلاطون بالأخص إذ زار أفلاطون مصر وبقي فيها ثلاث سنوات، حيث اطلع على النظم السياسية التي كانت سائدة في الحضارة المصرية وهو أمر تؤكده الشواهد التاريخية وأقوال أفلاطون نفسه، أما اطلاعه على حضارة العراق، يشير بعض المؤرخين على أنه قد زار بابل بعد وفاة أستاذه سقراط، ومن الأرجح أن أفلاطون عرف شيئاً عن حضارة العراق القديم إذا ما عرفنا أن زينفون قائد حمله الإغريق خلال تقهقرهم من بابل قد ألف كتاباً عن البلاد وأحوالها، عوضاً عن أشكال الاتصالات الأخرى المباشرة وغير المباشرة بين الحضارتين.

إذن هذا يعني أن العلم اليوناني تأثر بمؤثرات شرقية، وأخذ الإغريق من الحضارات القديمة ما وجدوه قابل للتكيف والتوافق بحسب احتياجاتهم وادخلوا عليه التحسينات حتى بلغوا به غاية عليا.

ومع هذا التأثير المتبادل والإقرار بالتزاوج الفكري بين الحضارات إلا أن النظرة إلى التراث الفلسفي الإسلامي قد ابتليت بكم هائل من الخطاء جعلت من تاريخ هذا التراث الفلسفي ميداناً للاجتهادات التي شوهت صورته وأبعدته عن حقيقته ولعل ابرز هذه الأخطاء هو ربط الفلسفة الإسلامية بفلسفة اليونان ولا سيما فلسفة أفلاطون وأرسطو ربطاً كلياً آلياً والحكم على الفلاسفة المسلمين بمقدار اقترابهم عن سابقيهم من اليونان، فهذه الفكرة من أرسطو، وتلك من أفلاطون، وهنا أخطأ الفيلسوف المسلم فهم أرسطو، وهناك حصل على فلسفة أفلاطون مشوهه وهكذا فأن أي جانب ايجابي من الفلسفة الإسلامية يحسب لليونان ، بينما الجانب السلبي يحسب على المسلمين، أي ستكون النتيجة هي أن الفلسفة الإسلامية لا تعني شيء، والفلسفة اليونانية هي الحكمة التي لا يمكن تجاوزها (١٩:ص٦٥) .

ومن الأخطاء الأخرى التي ارتكبت بحق الفلسفة الإسلامية الحكم عليها بمنظار المستشرقين وترديد أحكامهم نفسها أو وضع أحكام أخرى، ومن ذلك تقدير الفيلسوف المسلم وبيان أصالته الفسلفية بمقدار قطيعته مع روح الحضارة العربية الإسلامية، وبمقدار خروجه على أساسيات الدين الإسلامية والمنظومة الفكرية الإسلامية، فأي فيلسوف يتحدث عن الله عز وجل على وفق المنظور الإسلامي يحكم عليه بأنه صاحب عقيدة لا فلسفة وفي أحسن الأحوال ينظر إليه انه مبتدأ لا فيلسوف.

مسوغات البحث:

١. التراث الفلسفي العربي الإسلامي ثروة قومية كبيرة بما يحويه من قيم ومعان إنسانية نبيلة، ينبغي استجلاؤه ومراجعته في ضوء حاجات حاضرنا ورؤى مستقبلنا.

٢.تنمية شعورنا بالاستقلال الفكري والعلمي شكل حافزاً على الاعتماد على أنفسنا والرجوع إلى واقعنا لبناء قاعدة من المعارف والأفكار ويكون تراثنا القديم بعد تمحيصه رافد من روافدها.

٣.إثبات خطأ التصور التقليدي والأحكام القاسية على تراثنا القديم، خاصة في الجانب الفلسفي والاجتماعي منه ورد الدعوة القائلة بأن العرب كانوا مجرد نقله للفكر اليوناني وأن حسنتهم الوحيدة كانت في حفاظهم على هذا التراث حتى انتقل إلى أوربا من جديد هذه الدعوة جعلت من تراثنا تابعا ومقلداً، وأنه لولا فلاسفة اليونان أفلاطون وأرسطو لما كان أعلام المسلمين مثل ابن سينا والفارابي وابن رشد وابن خلدون ولولا المعلم الأول لما كان المعلم الثاني، واستمر هذا الفهم الخطأ حتى وقتنا الحاضر إذن كيف يمكن تصور أن المسلمين لم يؤثروا فيما نقلوه عن اليونان، الم يكن لهم موقف إزاء هذا الفكر، الم يتقبلوا أشياءً ويرفضوا أشياءً.

نظرة تاريخية لاتصال العرب بفلسفة اليونان:

اتسعت رقعة البلاد الإسلامية بالفتوحات وانتشار العرب بين الشرق والغرب يعلون كلمة الإسلام ويرفعون رايته أينما حلوا، وبعد هذا التوسع انكب العرب على العلوم والمعارف والثقافات التي وجدوها في تلك البلدان مما زاد في تسريع الجانب العلمي وتنميته والنهوض به، بمعنى أن العرب اثروا ثقافياً من الأمم الأخرى التي عملت على نقل علومها ومعارفها إلى العربية، وهذا ساعد على ازدهار المعارف والعلوم التي رفدت الثقافة العربية وأضافت إليها منابع جديدة وخلفت جواً للحوار والتفاعل والتواصل بينها وبين بقية الأمم (٣:ص١٧٣ذ) ومن هذا اتجه مفكرو الإسلام إلى دراسة الفلسفة اليونانية واستمدوا منها الكثير ودرسوا أفكارها بعقلية إسلامية .

اختلفت آراء الباحثين حول البداية الحقيقية لآلية الاتصال بين الفلسفة العربية وفلسفة اليونان، فهناك من يعتقد أن هذا الاتصال كان من العصر الجاهلي كما ورد على رأي الدكتور علي النشار ، فالكنائس المنتشرة في الشام وبلاد ما بين النهرين متأثرة بفلسفة اليونان، ولم يكن العرب منعزلين عن هذه الأمم، فكانوا ينتقلون بين هذه البلاد ومن المؤكد اتصالهم بالفلسفة اليونانية (٢٢:ص٣٥) ويرى آخرون أن انتقال فلسفة اليونان إلى العرب بدأ في صدر الدولة الأموية، أما دي بور فاعتقد أن الاتصال بدأ في العصر العباسي وتم نقل كتب اليونان في الطبيعة والطب والمنطق إلى اللسان العربي في عهد المنصور الذي ازدهرت فيه حركة النقل والترجمة وخاصة عن فلاسفة اليونان (١٠:ص٢٩) .

وبهذا يكون العرب المسلمون قد أخذوا من ثقافات الأمم الأخرى علماً وفلسفةً وأدباً وسياسة واستوعبوا ذلك كله بالحوار والاتصال والنقل والترجمة، غير أن أبناء الحضارة العربية الإسلامية من المفكرين والفلاسفة حينما احتكوا بالحضارة اليونانية كانت لديهم دراية وصورة واضحة عن الكون والإنسان والحياة، وبعبارة أدق أنهم احتكوا بهم وهم ناضجون، ونظروا إلى ما ترجم من تراث اليونان نظرة المتفحص الواعي، كل ذلك سهل قيام حركة علمية ومعرفية نشطة لدى العرب بدأت في القرن الأول للهجرة وبلغت أوجها في القرن الرابع الهجري.

أشار المؤرخون والعلماء على تعدد مصادر اتصال العرب بالفلسفة اليونانية ويمكن حصرها بالآتي:

١. مدرسة الإسكندرية: كانت مدرسة الإسكندرية وعلماؤها من أهم قنوات الاتصال والنقل للتراث اليوناني إلى العالم العربي الإسلامي، ونشطت في هذه المدرسة حركة فلسفية وعملية ساهمت بتثقيف الحضارة العربية والشرقية.

وقد تميزت هذه المدرسة بالفلسفة والطب والكيمياء، وأخذ العرب منها منهج الدراسة لهذه العلوم، وشكلت مصنفات أبقراط وجالينوس أساس المنهج في العلوم الطبيعية والمؤلفات الأرسطية شكلت الأساس الفلسفي.

مدرسة الإسكندرية عرفت مدرستين تفلسفتا باليونانية، الواحدة يهودية والأخرى وثنية، كان بالإسكندرية جالية يهودية تأدبت بالأدب اليوناني، ومن أشهر رجالها "فيلون الإسكندري " والذي يعد احد زعماء المذهب الإسكندري وكان أكبر ممثلي الفكر اليهودي، وكان مولعاً بالفلسفة وعلى دراية كبيرة بالتراث اليوناني وكتب شرحاً ضخماً على التوراة وادمج شرحه آراء فلسفية مختلفة المصادر من أفلاطونية وأرسطوطاليسية وفيثاغورية.

أما المدرسة الوثنية فهي عبارة عن تجديد للأفلاطونية أسسها "أمينوس" الذي نشأ مسيحياً ثم ارتد إلى الوثنية، لم يدون آراءه بل كان يقتصر على التعليم وأشهر من أخذ عنه تلميذه أفلوطين (١٣:ص٧٧).

وهكذا كان لمدرسة الإسكندرية دور بارز في نقل التراث الفلسفي اليوناني إلى العالم العربي الإسلامي.

٢. المسيحية: تحمل أفكار دين سماوي، أُقرب للإسلام في روحانيته من الدين اليهودي واشتملت تعاليمه الدعوة إلى مكارم الأخلاق والى بناء الإنسان فكراً وسلوكاً والمسيحية الحق التي دعا إليها سيدنا المسيح عليه السلام في ارض العروبة. تدعو إلى كفاف العيش في الحياة الدنيا وطيب المال في الآخرة.

فمن المعروف أن الكنيسة المسيحية في الشرق، قد عالجت مسائل اللاهوت بأساليب فلسفية وكانت اليونانية هي اللغة التي اصطنعها الحواريون وتلامذتهم، وهم يبشرون بالديانة الجديدة في فلسطين وسوريا ومصر وآسيا الصغرى وشبه جزيرة اليونان (٤:ص١٦).

وهكذا نجد أن الفلسفة اليونانية قد وجدت هوى وميلاً في نفوس المفكرين المسيحيين فاعتنقوا مبادئها. ولما فتح العرب مصر والشام وبلاد ما بين النهرين، وجدوا تراثاً فكرياً مسيحياً متسلحاً بالمنطق والفلسفة. ومنذ القرن الثاني للهجرة، احتك الإسلاميون بالكهان والآباء المسيحيين ودخلوا في جدال معهم وخاصة مسالة القدر ومسألة خلق القرآن.

وبهذا يكون للمسيحية دور كبير في نقل الثقافة اليونانية من الإسكندرية وإنطاكيا ونشروها إلى مدارس الرها ونصيبين وحران وجند بسابور.

٣. الأفلاطونية المحدثة: هو مذهب تلفيقي اختار من كل مذهب ما يتفق والنزعة الصوفية التي امتاز بها أفلوطين؛ فقد جمع بين الأرسطية المتأخرة واخرج مذهباً يموج بمختلف الآراء والأفكار.

عرفت الأفلاطونية المحدثة عند العرب من خلال كتاب "اتولوجيا أرسطوطاليس" وقد ثبت مما لا يدع مجالاً للشك أنه أجزاء من تاسوعات أفلوطين، ولكنه عرف عند الإسلاميين منسوباً إلى أرسطوطاليس (٢٠:ص٤٣٢).

إذن نقل الجانب الأكبر من فلسفة أفلوطين المنسوبة لأرسطو إلى الفكر الإسلامي، ولم يعه الإسلاميون أنها آراء أفلوطين خالصة ولا يمكن استرجاعها إلى فكر أرسطو لأنها لا تنسجم مع جوهر فلسفته (٢٣:ص١٨٢) ففي أعماق الأفلاطونية المحدثة عناصر أرسطوطاليسية وأفلاطونية وفيثاغورية وكذلك آراء الإسلاميين وبالتالي فهي حاولت التوفيق والتنسيق بين مختلف المذاهب.

وهكذا يمكننا القول أن الأفلاطونية المحدثة من أكثر المذاهب الفلسفية أثراً في الفكر الإسلامي كونها مزجت بين مختلف الفلاسفة والمذاهب، وجاء ذلك اقرب إلى طبيعة التفكير العربي الإسلامي فانتقال الفلسفة اليونانية إلى العرب عن طريق الأفلاطونية المحدثة لم يكن مجرد مصادفه عارضه بل كانت هناك أسباب عمقيه لذلك منها رغبة العرب في مذهب يجمع لهم خلاصة الفكر اليوناني كله، فضلا عن التأثيرات الدينية والنزعات الشرقية في الأفلاطونية المحدثة (١١:ص١٥١).

٤. شراح أرسطو: كان لشراح أرسطو دور كبير في نقل الأفكار اليونانية إلى العالم الإسلامي فكانوا لكي يشرحوا كتب أرسطو لا بد أن يتعرضوا للمذاهب والمدارس التي هاجمته واختلفت معه بغرض تنفيذها والرد عليها دفاعا عن المذهب الأرسطي، وقد عرف الإسلاميون كثيرا من هؤلاء الشراح وعرفوا بالتالي الآراء الفلسفية عن طريقهم.

٥. فتوحات الإسكندر وغزواته: لا يخفى أن انتشار الفلسفة اليونانية خارج اليونان واتصالها بالشرق، كان بسبب فتوحات الإسكندر وغزواته للشرق، فضلا عما تقدم لا بد من الإشارة هنا أن دخول الفلسفة اليونانية إلى العالم الإسلامي ونشأة التفكير الفلسفي، يرجعه البعض إلى أسباب سياسيه، فهناك فرق نشأت بدوافع سياسيه، أي كان الحكم السياسي يتطلب وجودها، وهناك من جهة أخرى فرق قامت على الضد من تلك، وشهد التاريخ الإسلامي الكثير من الأزمات والمحن المتعلقة بالفرق والآراء الكلامية والفلسفية التي كانت تجري وتتأزم أو تحسم بتدخل من السلطات السياسية، ومن أمثلة هذا صعود المعتزلة وسيطرتهم بمساعدة الخلفاء كالمأمون والمعتصم، ومن ثم تراجع سلطتهم الفكرية واندحارهم على يد المتوكل (١٧:ص١١١).

بعد أن تعرفنا على مصادر انتقال الفلسفة اليونانية إلى العربية، لا بد من الإشارة هنا إلى دور الترجمة في نقل هذا التراث، وأي اللغات الوسيطة لتحقيق ذلك.

تكمن أهمية حركة الترجمة بالوقوف على عمق الأثر الذي تتركه حركة الترجمة في الفكر العربي والإسلامي، حيث تم عن طريقها وقوف المسلمين بصورة أكمل وبطريقة أفضل على التراث الأجنبي، وكان من نتائج هذا التزاوج الفكري المنتظم المقصود الهادف تطور الفكر الفلسفي في الإسلام ونمائه، وظهرت في افقه آراء وفلسفات ومذاهب لم يكن للعرب المسلمين عهد بها.

سنركز هنا ما يتعلق بحركة الترجمة من الثقافة اليونانية إلى العربية، وأول مشكلة واجهت الترجمة في الفلسفة الإسلامية كانت وساطة اللغة السريانية بين اللغتين اليونانية والعربية فمن المعروف أن الفلسفة اليونانية لم يتعرف إليها العرب مباشرة من اليونانية لعدم معرفتهم أصلاً باللغة اليونانية إلا في زمن متأخر، وإنما كانوا يعتمدون

الترجمات السريانية وكثير من التراجمة السريان لم تكن معرفتهم بالعربية جيدة، واستمرت هذه الترجمات السريانية حتى منتصف القرن الثالث الهجري إذ بدأت الترجمات إلى العربية تزداد شيئاً فشيئاً (١٨:ص٥٨).

وكثيرا ما كان يقتصر اثر الفلاسفة العرب المسلمين أصحاب الاختصاص في هذا الشأن على إصلاح الترجمات التي يقوم بها غيرهم من السريان ومن الطبيعي أن تكون اغلب إصلاحاتهم لهذه النصوص إصلاحات لغوية وأسلوبية لعدم معرفتهم أصلا بالفلسفة اليونانية أو بدقائقها.

لقد تنبه المفكرون العرب الأقدمون إلى هذه النقطة كثيراً، أي التحريف في نقل الفلسفة اليونانية عن طريق اللغات الوسيطة بينهما وبين العربية، فعلى سبيل المثال يذكر أبو حيان التوحيدي في كتابه" المقابسات" أن الترجمة حدثت أول ما حدثت من اليونانية إلى العبرانية ومنها إلى السريانية ومن ثم إلى العربية وأدى هذا التشتيت في الترجمة إلى إخلال وتحريف في النص، وطبيعة العبارة ودلالتها، ولولا ذلك لكنا على معرفة ببيان اليونان ومعانيهم المبدعة ولكانت الحكمة قد وصلت إليهم بلا شوب وكاملة بلا نقص (٧:ص٢٦٦).

يشير البعض أن نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية لم تصل خالصة أو محددة الأجزاء والمذاهب وإنما وقع خلط كبير جعل الفلاسفة اليونان يأتون مشوشي الصورة مختلطي المذاهب (١٢:ص١١٠).

إذن الغموض في ترجمة بعض الكتب استمر لفترة طويلة ولم يقع المسلمون على الصورة الحقيقية إلا بعد ازدهار الترجمة في العصر العباسي وان بقي شيء من الخلط والتشويش فيها.

اتجاهات تقييم التراث الفلسفي الإسلامي:

لتسليط الضوء على هذا الموضوع لا بد من سؤال يفرض نفسه ومفاده هل للحضارة العربية الإسلامية فلسفة أصلية خاصة بها أم أنها مقتبسة من فلسفات وثقافات أجنبية. للإجابة على ذلك يمكن القول أن مؤرخو الفكر الفلسفي اختلفوا في تقييم أصالة التراث الفلسفي الإسلامي، وتقدير عناصر الإبداع والابتكار فيه فهناك اتجاه تنكر إلى استقلالية العقل العربي وكل سمات التحضر والتقدم فيه ورأى هذا الاتجاه أن الفكر الإسلامي مجرد من كل مزايا التفكير الفلسفي وهو لا يمتلك نظرة عقلية شاملة للكون والإنسان والحياة، ولا يمكن أن يرتقي إلى صورة مذهب فلسفي متماسك، بل أفكار مشتتة لا يجمعها تنسيق وانسجام وان ما كتبوه لا يزيد عن شرح للفلسفة اليونانية، وبهذا يظهرون تأثيراً بالغاً لفلسفة اليونان في الفكر الإسلامي.

وهنا نبدأ ما اقر به ابن خلدون في المقدمة " بأن العلوم العقلية هي طبيعة للإنسان من حيث أنه ذو فكر به يلتمس العلم والمعرفة ويسمو إلى العدل والفضيلة إلا انه مع ذلك يعترف بأن أكثر من عمل بهذه العلوم العقلية قبل الإسلام هما فارس والروم، فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم وذات بحور زاخرة في آفاقهم وأمصارهم، أما بالنسبة للعرب فيذكر أن ابتداء أمرهم كان بالسذاجة والغفلة عن الصنائع (١٤:ص١٦).

أما سانتلانا يرى أن العلوم الإسلامية مؤسسة منذ نشأتها على علوم اليونان حتى لا يكاد يفهم آراء حكماء الإسلام، ولا مذاهب قدماء المتكلمين من لم يكن له بحكمة اليونان ومعرفة شافية لا مجرد إلمام (٦:ص١٦٠).

ويقول الفرد جيوم " إن الفلسفة الإسلامية ليست إلا خليطاً من أراء القدماء ولا تجانس بين موادها المتنوعة وان الشعوب الناطقة بالضاد، لم تفعل شيئاً أكثر من أنها استولت على الفلسفة اليونانية التي كانت شائعة بين المسيحيين من أهل سوريا والمثقفين من أهل حران ثم أضافت إليها بعض عناصر استمدتها من الهند (٦:ص١٦٥)، ويذهب "الفريد نورث" إلى القول بأن الفلسفة الحديثة ما هي إلا تعليقات على الفلسفة الأفلاطونية وامتداداً لها (١:ص١٨٢) ويستشهد هؤلاء على ذلك بالفارابي من أن مدينته الفاضلة لا تزيد عن دولة المثالية التي جاء أفلاطون.

واستمرارا لمسلسل إنكار معاني التفلسف والتجريد والنظرة الشاملة عند العرب المسلمين هذه المرة ظهر مع جماعة من غلاة المستشرقين بدافع من العصبية للجنس والدين فجعلوا من هذه الأفكار دعوة عامة تعتمد على النظرية العرقية التي صارت لا تعترف باستقلال العقل العربي بالإنتاج العقلي وتنظر إلى الحضارة الإسلامية بأنها حضارة مقلدة لا مجتهدة، وآخذة لا معطية ، نقلت إليها الحضارة اليونانية وأخذت منها كل شيء دون إبداع يذكر وبموجب هذه النظرية العرقية، التي برزت التفوق والتبعية للتراث الأجنبي عمدت إلى تقسيم الناس إلى ساميين وآريين، الأول الجنس العربي، جنس بشري سامي متميز ينحدر من أصل مشترك، وأنه اقل مستوى من الجنس الآري في العقلية والتفكير وأنهم يتميزون بتشابه لغاتهم وتركيب عقليتهم التي تتأثر بالغيبيات، والنظرة الجزئية للأشياء والبساطة في التفكير، أما الجنس الآري فهو الأصل لشعوب أوربا فهو على العكس من ذلك يؤلف بين الأشياء بوسائط تدريجية لا يتخطى واحداً منها إلى غيره، إلا على سلم متداني لا يكاد يحس تنقله فيه، فهو عقل جمع ومزج (١٤:ص٢٤).

وبالرجوع إلى حقيقة الأحكام التعسفية التي صدرت عن طائفة من الباحثين الغربيين يمكن القول أن هؤلاء، لم يحسنوا تقدير الكثير من عناصر الابتكار والأصالة التي تميز الفكر الإسلامي وكانوا غرباء عليه، ويرجع على ما يبدوا أن الباحثين الغربيين هم مؤرخة الفكر الفلسفي أكثر من كونهم فلاسفة فلم يدرسوه دراسة المختص ليقفوا على أصوله وجذوره البعيدة ولم يفقهوا اللغة العربية ليدركوا المعاني الباطنية للنصوص الفلسفية فضلاً عن ذلك النضرة العرقية لهؤلاء التي تقوم على التمييز بين الأجناس والأديان والتحيز لإخفاء كل عوامل الإبداع والأصالة على جنس دون آخر، ناهيك عن أنهم نظروا إلى الفلسفة الإسلامية بالمعنى الضيق وفهموها إنتاجاً عقلياً ذاتياً مستقلاً، وفاتتهم انه إنتاج عقلي ضخم اشتركت في بنائه وتطويره وإنمائه عناصر شتى من العرب والفرس والروم والهند، وهنا نستحضر مقولة الأستاذ ريتشارد فالتزر الذي كان منصفاً في تقييم التراث الإنساني حيث يقول " الحق أننا كلما ازددنا معرفة بتاريخ البشر ازددنا إدراكاً بأنه لا يوجد خلق ذاتي في التاريخ وإنما هو عطاء أشكال جديدة لمواد كانت موجودة من قبل، والفلسفة الإسلامية مثال ممتع لهذه العملية التي يقوم عليها استمرار الحضارة البشرية " (١٤:ص٢٤).

وبالعودة إلى تهميش التراث الإسلامي يروج له هذه المرة من المعاصرين وكما جاء على لسان الدكتور عبد الرحمن بدوي قائلاً " الفلسفة منافية لطبيعة الروح الإسلامية ولهذا لم يقدر لهذه الروح أن تنتج فلسفة، بل ولم

تستطيع أن تفهم روح الفلسفة اليونانية، وان تنفذ إلى لبابها وإنما هي تعلقت بظواهرها ولم يكن عند واحد من المشتغلين بالفلسفة روح فلسفية بالمعنى الصحيح (٥:ص١١٦).

والمرحوم أحمد أمين يأخذ على العربي بأنه لم ينظر إلى العالم نظرة عامة شاملة بل كان يطوف فيها حوله، بينما كان يرى في اليوناني انه ابرز العالم إلى الوجود بحكم نظرته الشاملة والتحليل الدقيق لأسسه وعوارضه (٢:ص٤١).

ومع هذه المغالاة في إقرار تبعية الفكر العربي الإسلامي وإنكار استقلاله نحاول أن نعرج على أنصار الاتجاه الذي تزعمه نفر من المنصفين لرد دعوة الاتجاه الأول، والشيء البارز في الرأي الذي يحمله الاتجاه الثاني، هو أن فلاسفة المسلمين لا شك أن بعضهم قد شغف بفلاسفة اليونان ففي مقدمتهم أفلاطون وأرسطو إلا أنهم على العموم لم يفقدوا أصالتهم وأصالة الحضارة التي يمثلونها، ولا غرابة في ذلك لأن الحضارة الإسلامية شأنها شأن الحضارات الأخرى لا بد وأن تأخذ شيئاً من أفكار من تحتك به من حضارات أخرى، ثم تتفاعل بين ما تتفق عليه وبين ما لديها من أفكار، إلا أن هذا التفاعل يتم وفقاً لأسلوبها ونمط وقيم حياتها، هذا الرأي ينطبق أيضاً على الحضارة والتراث اليوناني بالذات الذي أخذ لا بل اقتبس من الحضارات السالفة بما في ذلك حضارة كل من مصر القديمة ووادي الرافدين (٢١:ص٨١).

ولتجديد أفكار الاتجاه الثاني نشرع بما قاله الأستاذ "دوجا" في معرض رده على "رينان وجوتيه"، عند هذين العالمين ليست الفلسفة العربية إلا تقليداً صرفاً للفلسفة اليونانية ولم يكن لها أي نتاج خاص. وهذه أحكام تذهب في البت إلى حد الشطط، ومصدرها سوء التحديد للفلسفة وجهلنا بما للعرب من مصنفات غير شروحهم لمؤلفات أرسطو ويستشهد دوجا بمثال مفاده " هل يظن أن عقلاً كعقل ابن سينا لم ينتج من الفلسفة شيئاً طريفاً ؟ وأنه لم يكن مقلداً لليونان؟ وهل مذاهب المعتزلة والأشعرية ليست ثماراً بديعة أنتجها الجنس العربي " (٩:ص١٣) ونود أن نضيف في ذلك مثالاً حياً، من المؤكد جداً أن الفارابي ادخل أفلاطون ضمن مرجعيته الفلسفية، فقرأ السياسية الأفلاطونية، ولخص نواميس أفلاطون وبد أرسطو يصبح رافداً من روافده وليس المصدر الوحيد لفلسفته فصار أرسطو المصدر الرئيس في المنطق والطبيعة وأفلاطون في السياسة بينما كانت هناك علوم أخرى خارجة سلطان هذين الفيلسوفين، بل وعن نطاق الفلسفة اليونانية كلها، وهذا ما يظهر واضحاً في كتاب إحصاء العلوم الذي اشتهر به الفارابي وحصل بموجبه على لقب المعلم الثاني.

ونسوق أيضاً شاهداً أخر يتعلق بالفارابي الذي اتهم من قبل كثير من الباحثين انه كان مقلداً لأفلاطون في المدينة الفاضلة بشكل عام وشروط الرئيس على وجه الخصوص، الشيء الذي ينبغي أن أقواله في هذا الصدد أن الرئيس الذي ينشده فيلسوفنا هو فيلسوف ونبي وعلى اتصال بالعقل الفعال أن هذا الجمع بين النبوة والفلسفة ما هو إلا تجسيد للتفاعل الفكري بين الاثنين والوفاق بين الحكمة والشريعة، إلا أننا نلتمس بشكل واضح روح الابتكار والإبداع في فكره، وقد كان جلي بفكرة الرئاسة عند تعذر الرئيس الواحد، فهو وان كان متأثراً بالشروط الأساسية

للرئيس، إلا أن الأفكار والإضافات التي جاء بها تجعلنا نبعد عنه أي تقليد، وقد كانت إضافاته واضحة في الفكر الفلسفي بشكل يميز هذه الشخصية الفلسفية من غيرها.

وتجسيدا لتأكيد مبدأ الأصالة والطابع الخاص المميز للفلسفة في الإسلام نذهب إلى ما قاله الأستاذ مصطفى عبد الرزاق " بأن الفلسفة الإسلامية كياناً خاصاً يميزها عن مذهب أرسطو ومفسريه فيها عناصر مستمدة من مذاهب يونانية غير مذهب أرسطو، وفيها عناصر ليست يونانية من الآراء الهندية والفارسية ثم أن فيها ثمرات من العبقريات أهلها ظهرت في تأليف نسق فلسفي قائم على أساس من مذهب أرسطو مع تلافي ما في هذا المذهب من النقص باختيار آراء من مذاهب أخرى بالتخريج والابتكار وظهرت أيضاً في أبحاثهم الصلة بين الدين والفلسفة (١٥:ص٢٥).

والى هذا الرأي ذهب الدكتور إبراهيم مدكور حيث أشار إلى الفلسفة الإسلامية ذات طابع خاص شخصية مستقلة اخص خصائصها التوفيق والاختيار توفق بين النقل والعقل وتواخي وبين الدين والفلسفة، ذلك لان فلاسفة الإسلام يرون انه يمكن انه يمكن كشف الحقيقة من طرف شتى بوسائل متعددة، فيقودنا إليها المنطق والبرهان كما يهدينا نحوها الوحي والإلهام (١٤:ص٢٧).

هكذا نرى أن المؤرخين والباحثين من غربيين وعرب بلوروا فكرة أصالة التراث الفلسفي الإسلامي، واعتبروا التشويه والتقليد من مفاهيم الفكر الإنساني القديم، وعمدوا على التأكيد أن مدلولات الفكر الفلسفي قد اتسعت وصار يشمل الحياة العقلية والروحية وعلى جهد يستهدف الكشف عن حقيقته وفق منهج صحيح قوامه الاستقصاء والتحري والنقد.

استنتاجات عامة:

بعد دراسة التراث الفلسفي الإسلامي عبر صفحات هذا البحث نستطيع أن نضع بعض الاستنتاجات التي توصلنا إليها من دراستنا لهذا التراث والتي نوجزها بالآتي:

١. هذه الدراسة أرادت الوقوف على حقيقة الرأي القائل بأن كل قضية فكرية في الإسلام اثر ونتيجة بجانب أو آخر من جوانب الفكر الأجنبي، وأن الفكر الفلسفي الإسلامي لم يكن سوى استعارة خارجية صرفة خالية من كل إبداع.

٢. اتصل العرب بفكر الأمم الأخرى السابقة عليهم زمن ولا سيما اليونان، وأخذوا عن هذا الفكر ما يناسبهم وأضافوا إليه وطوروه حتى أصبحت له سماته وخصائصه التي تميزه عن غيره ثم انتقل نتاجه الفكري والفلسفي الأصيل إلى أوربا، فكان أحد العوامل المساعدة في إخراج أقربا من ظلمة العصور الوسطى وولوجها عصر النهضة في نهاية القرن الخامس.

وهذا ما يجعلنا القول أنه لا يوجد دليل واحد ممكن الأخذ بما قاله بعض المؤرخين الغربيين والعرب المعاصرين بأن العرب قد هجموا على الفلسفة اليونانية، أو أن الفلسفة الإسلامية ليست إلا صورة مشوهة من مذهب أرسطو ومفسريه، وبالتالي لنا الحق في رد كل الأحكام القديمة على تراثنا الإسلامي خاصة فيما يتعلق بتطبيق منهج الأثر

والتأثر وهو المنهج الموروث في القرون الماضية والذي لم يعد أحداً من علماء الحضارة لارتباطه بالنزعة التاريخية.

٣. نخطأ كل الخطأ إن زعمنا أن العرب لم يصنعوا شيئاً أكثر من أنهم أخذوا عن غيرهم وهذا زعم وقع فيه بعض الباحثون أمثال الفرد جيوم وسانتلانا والفريد نورث ويرجع في الغالب انه لم تتضح أمامهم حركة الإسلام العلمية وضوحها لديهم اليوم، وإذا كان العرب قد أخذوا عن غيرهم فأن لهم أصالتهم وإسهامهم لا بل لم يبقى اليوم أدنى شك أن هناك فلسفة عربية إسلامية ذات خصائص مميزة عالجت المشاكل التقليدية الكبرى وهي مشكلة الكون والإنسان والحياة.

الخاتمة

مما تقدم لا يمكن أن ننكر أن التفكير الفلسفي في الإسلام قد تأثر بالفلسفة اليونانية، وان الفلاسفة المسلمين قد أعجبوا باليونان كثيراً وتابعوهم في نواح عدة ، واخذوا عن فكرهم ما يناسبهم وأضافوا إليه وطوره حتى أصبحت له سماته وخصائصه التي تميزه عن غيره، ولكن من الخطأ أن نتفق مع الرأي القائل بأن العرب لم يصنعوا شيئاً أكثر من أنهم عن غيرهم وما قاموا به مجرد تقليد ومحاكاة وفلسفتهم مؤسسة على علوم اليونان كما زعم سانتلانا ونورث، لا بل أنها فلسفة أصيلة، كونها متأثرة ببيئتها والظروف المحيطة بها، حيث نشأت هذه الفلسفة في قلب الإسلام وتربى رجالها على تعاليمه واتخذت من الإيمان بالعقل أساساً نقول عليه في تفسير ظواهر الإلوهية والكون والإنسان والدليل على أصالتها هو أن نتاج العرب الفكري والفلسفي قد انتقل إلى أوربا، فكان احد العوامل المساعدة في إخراج أوربا من ظلمة العصور الوسطى وولوجها عصر النهضة في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر ( ) ولما كان العرب قد اقبلوا على الفلسفة اليونانية، وشرحوا كتب أفلاطون وأرسطو كما ذكر "دي بور"، لا بد أن يكون لهؤلاء الفلاسفة الذين مثلوا التراث اليوناني أثر واضح في أفكار الفلاسفة المسلمين ، الذين حاولوا التوفيق بين المبادئ الفلسفية والمبادئ الإسلامية، بحيث أصبحت فلسفتهم مزيجاً من الآراء الفلسفية الوافدة ومن القيم الإسلامية السائدة( ). أي الربط بين الفلسفة اليونانية والعقائد الإسلامية واستخرجوا من هذا الربط آراء في ثوب إسلامي جديد، كل ذلك من أجل أن يبرز موقع الفلسفة وأهميتها داخل الفلسفة الإسلامية.

المصادر والمراجع

١–الآلوسي، حسام محي الدين، الفلسفة قبل أرسطو، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٠.

٢–أمين، أحمد، ظهر الإسلام، لجنة التأليف والنشر، ط٣، ١٩٥٢.

٣–أنتوني نتنج، العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، ترجمة راشد البراوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٤.

٤–اولبري، علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، الإسكندرية.

٥–بدوي، عبد الرحمن، أفلاطون، وكالة المطبوعات، دار القلم، الكويت، ١٩٧٩.

٦–التكريتي، ناجي، الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام.
٧–التوحيدي، أبو حيان، المقابسات، تحقيق وتقديم، محمد توفيق حسين، بغداد، ١٩٧٠.
٨–جورج سارتون، الشرق الأوسط في مؤلفات الأمريكيين، ترجمة عمر فروخ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٣.
٩–دوجا، تاريخ الفلاسفة والمتكلمين عند المسلمين، باريس،١٨٨٩ ،ص١٦، نقلاً عن مصطفى عبد الرزاق.
١٠–دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة أبو ريدة، ط٣، لجنة التأليف والنشر، ١٩٥٤.
١١–زكريا، فؤاد، التساعية الرابعة لأفلوطين، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠.
١٢–صلبيا، جميل، تاريخ الفلسفة العربية، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٣.
١٣–الطويل، توفيق، من تراثنا العربي الإسلامي، بيروت، ١٩٧٥.
١٤–عبد الحميد، عرفان، الفلسفة في الإسلام (دراسة ونقد)، دار التربية للطباعة والنشر، بغداد.
١٥–عبد الرزاق، مصطفى، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، بيروت.
١٦–علاوي، عبد الحفيظ أحمد، نظرية التربية عند الأمام الغزالي، منشورات دار الفرقان، عمان، ١٩٨٤.
١٧–كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت.
١٨–ماكس مايرهوف، من الإسكندرية إلى بغداد، ضمن كتاب (التراث اليوناني فقي الحضارة الإسلامية) ترجمة عبد الرحمن بدوي، الطبعة الثالثة، دار النهضة، القاهرة، ١٩٦٥.
١٩–مدكور، إبراهيم، أبو نصر الفارابي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣.
٢٠–مطر، أميره حلمي، الفلسفة عند اليونان، الجزء الثاني، القاهرة، ١٩٧٢.
٢١–معروف، ناجي، أصالة الحضارة العربية، ط ١، مطبعة التضامن، بغداد، ١٩٤٩.
٢٢–النشار، علي سامي وآخرون، الأصول الأفلاطونية، الطبعة الأولى، مطبعة المعارف، الإسكندرية ١٩٦٤.
٢٣–النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الجزء الأول، بيروت.
٢٤–ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الأول من المجلد الأول، ترجمة زكي نجيب محمود، مطابع الرجوي، القاهرة، ١٩٧٣.